

استخدام بحث الفعل التشاركي كمنهجية للتعلم والتقييم: دراسة حالة مشروع "الفن للجميع" (٢٠١٩ - ٢٠٢٢)

نوفمبر ٢٠٢٣



بحث وتوثيق
محمد ياسين سلمان
مسئول البحث والتقييم التشاركي
مسارات جماعية

استخدام بحث الفعل التشاركي كمنهجية للتعلم والتقييم: دراسة حالة مشروع "الفن للجميع" (٢٠١٩ - ٢٠٢٢)

يعرض هذا المقال تجربة استخدام بحث الفعل التشاركي بغرض تمكين عملية التقييم والتعلم التشاركي خلال مشروع "الفن للجميع". على عكس النهج التقليدي للتقييم الذي يعتمد على المقيمين الخارجيين، يعزز بحث الفعل التشاركي التقييم التشاركي، حيث يلعب المشاركون في المشروع وفريق العمل دورًا مركزيًا في تقييم نتائج وأثر المشروع. بالإضافة إلى ذلك، تمكّن أساليب البحث الفعل التشاركي فريق المشروع من ممارسة التخطيط واتخاذ القرارات ورصد أنشطة المشروع بشكل تشاركي. يُقدم المقال أيضًا حججًا بأن منهجية البحث التشاركي فعّالة في تقييم النتائج غير الملموسة للمشاريع المعنية بالفنون والثقافة. إذ أن بحث الفعل التشاركي يدمج أساليب مبتكرة ومثيرة للاهتمام تأخذ في اعتبارها الأصوات والتجارب الشخصية للمشاركين وفريق عمل المشروع، مما يشير إلى نوعية وعمق النتائج والأثر الناتج.

1. خلفية مشروع "الفن للجميع"

بالتعاون مع مؤسسة دروسوس، قامت جمعية أنا مصري بتنفيذ مشروع يستمر لمدة أربع سنوات يُعرف باسم "الفن للجميع" في محافظة قنا، وهي محافظة تقع على بعد 600 كيلومترًا جنوب القاهرة. كانت أهداف المشروع ثلاثة: 1) تعزيز مؤسسات الحكومة المعنية بالفن والثقافة، مثل المراكز الثقافية؛ 2) العمل مع الأطفال في 18 مجتمعًا حضريًا وريفيًا لتنمية مواهبهم الفنية؛ و 3) نشر وتعزيز القيم الإيجابية في المجتمع من خلال فنون متنوعة.

طوال الأربع سنوات (2019-2022)، ساهم المشروع في:

- توفير 5,755 فرصة تعلم ومشاركة للأطفال.
- بناء قدرات 139 متطوعًا (85% منهم إناث) وتوفير أكثر من 210 فرصة للتطوع في برامج وأنشطة المشروع.
- دعم 40 مؤسسة تعليمية وثقافية، مثل مراكز الشباب، والمدارس الخاصة، والجمعيات غير الحكومية، والمراكز الثقافية

2. عن بحث الفعل التشاركي

بحث الفعل التشاركي (PAR) هو بحث تشاركي يقوم فيه الأفراد بالعمل معًا على القضايا والنظر في المشاكل بهدف حلها والبناء على المعرفة المشتركة (Swartz, 2015). يسلط هذا التعريف الضوء على أن بحث الفعل التشاركي هو نهج تعاوني للبحث والتعلم والفعل من أجل التغيير الاجتماعي، حيث يجمع بين جميع الأطراف المعنية للعمل معًا على تحديد المشكلة، وتطوير منهج البحث والأدوات، وجمع المعلومات، وتحليلها، وإنتاج نتائج وحلول عملية تستجيب للمشكلة التي اختاروا العمل عليها.

بحث الفعل التشاركي يخلق مساحات للمشاركين للعمل معًا في دورة متكررة ومتجددة من الملاحظة، والتفكير، والتخطيط، والعمل. ومع ذلك، هذه الدورات المتكررة لا تكون على نفس المستوى الأفقي، بل تتصاعد رأسياً مع مرور الوقت لتحقيق تعلم تراكمي وتغيير على مر الوقت.

3. إحداث تحول في كيفية تخطيط وتقييم المشاريع.

استخدام بحث الفعل التشاركي كأداة للتقييم والتعلم التشاركي يحول التركيز نحو معالجة القضايا والمشكلات التي تختارها مجموعة أو مجتمع ما لتحقيق التغيير، بينما يركز التقييم التقليدي على تحديد نجاح المشروع والحكم على مدى استيفائه لوعوده من منظور موضوعي. يقلل التقييم الموضوعي من المعرفة الذاتية التي يكتسبها المشاركون وفريق العمل خلال المشروع. هم قادرون على تقييم نتائج وأثر المشاريع على أنفسهم، خاصة إذا كانت المشاريع تعمل على تحقيق تغييرات غير ملموسة كما يفعل المشاريع المركزة على الفنون والثقافة.

وفي هذا السياق، يعمل بحث الفعل التشاركي بشكل يعتمد على تمكين المشاركين وفريق العمل في المشروع من رصد نتائج وأثر المشاريع بأنفسهم. بالإضافة إلى ذلك، يُمكّنهم بحث الفعل التشاركي من العثور على حلول للمشكلات، حيث يعمل على تمكين كل من ممارسي التنمية والمجتمع من خلال العمل بشكل تعاوني لتنفيذ أنشطة المشروع وخطط العمل. يتم متابعة أنشطة المشروع وخطط العمل بشكل منهجي يتيح المجال للتفكير في عملية تنفيذ المشروع وما يترتب عليه من نتائج وأثر، مما قد يؤدي إلى مزيدا من المراجعة وإدخال تحسينات في المشروع. وبالتالي، يعتبر بحث الفعل التشاركي عملية تكرارية للتعلم المستمر وتحويل هذا التعلم إلى عمل. يُظهر الجدول أدناه مقارنة بين المنهجية التقليدية للتخطيط والتقييم ومنهجية بحث الفعل التشاركي.

منهجية البحث الفعل التشاركي في التخطيط والتقييم	منهجية التخطيط والتقييم التقليدية	
<ul style="list-style-type: none"> يكون فريق المشروع هو المخطط الحقيقي للمشروع بالتعاون مع فريق الإدارة العليا داخل المنظمة. يستطيع فرق المشروع تقييم أنفسهم والمشروع (مع التركيز على ملكيتهم للمشروع وقدرتهم على التقييم الذاتي). 	<ul style="list-style-type: none"> فريق الإدارة العليا داخل المنظمة (التخطيط) الخبراء الخارجيين (التخطيط والتقييم) 	من
<ul style="list-style-type: none"> خطط تم تطويرها بشكل مشترك للأهداف والأنشطة والنتائج ومؤشرات النجاح مع فريق المشروع والمشاركين. 	<ul style="list-style-type: none"> خطط محددة مسبقاً للأهداف والأنشطة والنتائج ومؤشرات النجاح. 	ماذا
<ul style="list-style-type: none"> التخطيط والإدارة المتكيفة للمشروع التي تستجيب للتغيرات في البيئة والظروف وتمكن الفريق من إيجاد أفضل الحلول والطرق لتنفيذ المشروع (يوجد مجال لتكييف هيكل المشروع والاستراتيجيات). التقييم الذاتي: أساليب تأملية وتشاركية لجمع البيانات وتحليلها، مما يضمن دوراً رئيسياً لفريق المشروع والمشاركة في التقييم. 	<ul style="list-style-type: none"> المشاريع هي اتفاقيات تعاقدية يجب تنفيذها كما هو مخطط له (لا يوجد مجال للتغيير) التركيز على "الموضوعية"، باستخدام إجراءات معقدة، ويجب أن يكون مقيم المشروع طرفاً ثالثاً بدلاً من فريق المشروع والمشارك. 	كيف
<ul style="list-style-type: none"> في أي نقطة من المشروع، يقرر فريق المشروع متى يكون هناك حاجة للتخطيط / إعادة التخطيط أو التقييم. 	<ul style="list-style-type: none"> يحدث التخطيط قبل بدء المشروع. يحدث التقييم عند اكتمال المشروع؛ وفي بعض الأحيان أيضًا في منتصف المدى. 	متي
<ul style="list-style-type: none"> تمكين فريق المشروع والمشاركين لبدء السيطرة واتخاذ الإجراءات التصحيحية. 	<ul style="list-style-type: none"> المساءلة، عادة ما تكون تقييمية لتحديد ما إذا ما سيستمر التمويل أم لا. 	لماذا

المصدر: Estrella, M., & Gaventa, J. (1998)

أظهر التقييم النهائي لمشروع "الفن للجميع" أن بحث الفعل التشاركي (PAR) قد مكّن فريق المشروع من التساؤل والتأمل بشكل نقدي في أنشطة المشروع وتفاعله مع المشاركين والمؤسسات الشريكة والمجتمعات المحلية. ساهم بحث الفعل التشاركي بشكل متعمد في إحداث تحول نحو تطبيق الأساليب التشاركية في تخطيط المشروع وتنفيذه وتقييمه. وتحديداً، أثرت عملية بحث الفعل التشاركي على هيكل الإدارة الهرمي الذي تتبعه الجمعية، حيث خلق بحث الفعل التشاركي مساحة للحوار والنقاش لم تكن موجودة سابقاً بين فريق المشروع ومسؤولي إدارة الجمعية بشأن جميع الأمور المتعلقة بالمشروع. امتدت هذه المشاركة لتشمل القرارات التي تتخذها إدارة الجمعية وتؤثر على المشروع. وانعكس ذلك أيضاً على إشراك المتطوعين في اتخاذ القرار، حيث تم انتخاب شابة من متطوعي المشروع كعضو في مجلس إدارة جمعية أنا مصري.

4. مراجعة عملية استخدام بحث الفعل التشاركي (PAR) للتقييم والتعلم التشاركي

كانت ورش العمل التشاركية التي استمرت يومين أو ثلاثة أيام هي الأسلوب الرئيسي لاستخدام بحث الفعل التشاركي (PAR) مما مكّن فريق المشروع من النقاش حول أسئلتهم والمشكلات التي واجهوها طوال المشروع، ومن ثم يقرروا كيفية جمع وتحليل البيانات لحل تلك الأسئلة والمشكلات. بالإضافة إلى ذلك، قدمت تلك الورش فترات تفكير تأملي لإعادة النظر في تجربتهم مع المشروع وتعميق تعلمهم. يُظهر المرفق 1 الجدول الزمني لعملية تطبيق البحث التشاركي في مشروع "الفن للجميع" وكيف تم استخدامه كمنهج للتخطيط والتقييم والتعلم التشاركي طوال رحلة المشروع (2019 - 2022)

يعرض القسم التالي توثيقاً وتأملاً حول التسع خطوات التي تم تطبيقها لدمج بحث الفعل التشاركي كوسيلة للتعلم التشاركي في مشروع "الفن للجميع". يمكن أن توفر هذه الخطوات والتأمل توجيهاً لتطوير عمليات مشابهة لتطبيق منهجية بحث الفعل التشاركي في التقييم والتعلم التشاركي في مشاريع التنمية.

الخطوة الأولى: ضمان التأييد من إدارة الجمعية

كانت نقطة البداية هي تقديم منهجية بحث الفعل التشاركي (PAR) لإدارة جمعية أنا مصري ومدير المشروع، مع ضمان تأييدهم للعملية والالتزام بتطبيق بحث الفعل التشاركي كأسلوب للتقييم والتعلم التشاركي طوال مدة المشروع. في هذه المرحلة، وافقت إدارة الجمعية ومدير المشروع على الأهداف والنتائج المتوقعة للعملية، ولكنهم كانوا يسألون حول كيفية اختلاف عملية بحث الفعل التشاركي عن طرق العمل الاعتيادية لديهم، مفترضين أنهم يعملون بالفعل بطرق تشاركية مع فريقهم والمجموعات المستهدفة. تتنوع أشكال الطرق التشاركية لتبدأ من مجرد استشارة الفريق عند اتخاذ القرارات، ويمكن أن تصل إلى مستوى نقل السلطة إلى فريق العمل والمجموعات المستهدفة التي تصبح متخذة القرار بشكل فعلي. بعد جولات متعددة من المناقشات والشرح مع دعم أمثلة على طرق البحث التشاركي المختلفة التي يمكن استخدامها، تم ضمان تأييدهم للعملية وجاهزيتهم لاستكشافها من خلال الممارسة. كان هذا الانفتاح للتعليم ولاستكشاف فوائد عملية بحث الفعل التشاركي هي الشرط الأساسي لضمان فعاليته.

الخطوة الثانية: تشكيل مجموعة تحقيق مشتركة وتقديم بحث الفعل التشاركي لفريق المشروع.

تم دعوة فريق المشروع إلى ورشة عمل لمدة ثلاثة أيام لتعريفهم بمنهجية بحث الفعل التشاركي وكيفية استخدامها للتقييم والتعلم التشاركي طوال المشروع. كانت الخطوة الأولى في عملية البحث التشاركي تشكيل "مجموعة بحث وتعلم مشتركة"¹ من فريق المشروع، الذين سيعملون معاً من خلال دورات من العمل والتفكير في القضايا والأسئلة التي يحددها بشكل مشترك فيما يتعلق بتصميم وتنفيذ وتقييم المشروع. خلال هذه الورشة، ناقشوا فهمهم لدور مجموعة البحث والتعلم المشترك، وكيفية إدارتها، وكيفية اتخاذ القرارات.

¹ تم تشكيل مجموعة البحث والتعلم المشترك من أعضاء فريق المشروع، بما في ذلك جميع منسقي المشروع واستشاري المشروع وخصائيي في التقييم والمتابعة، ومدير المشروع. تُستخدم مصطلحات "مجموعة البحث والتعلم المشترك" و"فريق المشروع" بشكل متبادل في هذا المقال، وذلك اعتماداً على سياق الكتابة، حيث يتكونون من نفس الأعضاء.

بالإضافة إلى فريق المشروع، قامت أنا مصري بدعوة مشاركين خارجيين من منطمتين شريكتين للمشاركة في ورش العمل حول بحث الفعل التشاركي. كانت أنا مصري تعترم توسيع عملية التعلم إلى المنظمات الشريكة الأخرى لتتعرف على أساليب جديدة يمكن أن تكون مفيدة في عملها. كميسر لعملية البحث التشاركي، اقترحت تسمية المشاركين الخارجيين بـ "زملاء التعلم" لتحديد توقعاتهم وأدوارهم بشكل واضح. كان بإمكان زملاء التعلم المشاركة في ورش البحث التشاركي لتتعرف على أساليب وأدوات البحث التشاركي، وكانوا مدعويين لنقل تلك الأساليب والأدوات إلى منظماتهم. من ناحية أخرى، لم يكن على زملاء التعلم مساءلين مثل الفريق المشروع عن أداء مهام ترتبط بالمشروع.

للأسف، تراجعت مشاركة زملاء التعلم، حيث توقفوا جميعًا عن العملية بعد الورشة الثانية. أعتقد أن السبب يمكن إرجاعه إلى أنه لم يكن مخططًا لدمج المشاركين الخارجيين في العملية من البداية، ولم يتم التواصل حول ذلك قبل بدء العملية. كما لم تكن هناك توقعات وأدوار واضحة لجعلهم جزءًا من العملية، مما قد يفسر سبب خروجهم بسرعة من العملية. إن عمليات البحث التشاركي هي عمليات طويلة، تتطلب الاستعداد والالتزام بالمشاركة الفعالة والانخراط في دورات العمل والتفكير.

الخطوة الثالثة: تقديم قوة "التأمل" و"الكتابة التأملية"

"التأمل" يلعب دورًا رئيسيًا في منهجية بحث الفعل التشاركي (PAR)، حيث يعترف بأهمية المعرفة الذاتية التي يكتسبها فريق المشروع طوال تنفيذ المشروع. وبناءً على ذلك، تم تخصيص إحدى ورش العمل لتعريف مجموعة البحث والتعلم المشترك بمفهوم التأمل، وكيف يمكن أن يساهم التأمل المستمر في تحسين ممارستهم داخل المشروع. على الرغم من أن الجميع كانوا قادرين على فهم مفهوم "التأمل"، إلا أنهم أظهروا قدرات متنوعة في تطبيق الكتابة التأملية طوال العملية. كان من الواضح أن أولئك الذين اعتادوا الكتابة الإبداعية والمشاركة في الفنون الأدائية كانوا أكثر قدرة على تبني الكتابة التأملية من الآخرين. أحد الدروس المستفادة هو أن تطوير قدرة التعلم التأملي يمكن أن تتباين بشكل واسع من شخص إلى آخر، اعتمادًا على خبراتهم السابقة واستعدادهم للتعلم والتزامهم بممارسة وتطبيق الطرق التأملية في حياتهم اليومية.

في مرحلة لاحقة من العملية، تم تخصيص ورشة عمل أخرى للتعامل مع تحديات "التأمل" و"التعلم التأملي" وتقديمهم لطرق أخرى بدلاً من الكتابة للتعبير عن تأملاتهم، مثل السرد، وتسجيل التأملات الصوتية، والصوت الناطقة Photovoice. توسيع طرق التأمل مكن أعضاء مجموعة البحث والتعلم المشترك من اختيار وسيلة ملائمة للتعبير عن تأملاتهم. أحد الدروس المستفادة هو عدم التشديد على الكتابة وتقديم مجموعة واسعة من الطرق التي يمكن أن تمكن التعلم التأملي. يجدر بالذكر أنه بحلول نهاية المشروع، تحسنت قدرة أعضاء مجموعة البحث والتعلم المشترك على التعلم التأملي إلى حد كبير لدرجة أنهم جميعًا ساهموا في كتابة كتاب تأملي حول تجاربهم في استخدام منهجية بحث الفعل التشاركي (PAR) طوال المشروع.

الخطوة الرابعة: بناء فهم أعمق للمشروع وواقع المجتمعات المستهدفة.

قدمت ورش العمل لفريق المشروع مساحة لمناقشة نظرية التغيير (TOC) للمشروع، مما أدى إلى فهم أعمق للنتائج والأثر المتوقع من المشروع. على عكس تجاربهم مع المشروعات السابقة، لم تقتصر مشاركتهم على تنفيذ الأنشطة. على وجه التحديد، أشار فريق المشروع إلى أنه كانت هذه المرة الأولى التي يشاركون في مناقشة على هذا المستوى، مما انعكس إيجابًا على إحساسهم بملكية المشروع. داخل ورش بحث الفعل التشاركي، بدأت مساحة تواصلية تظهر بين فريق المشروع وإدارة الجمعية، حيث كان فريق المشروع قادرًا على طرح أسئلة حول نظرية التغيير للمشروع والحصول على إجابات عليها. ساهمت هذه المناقشات حول المشروع في تنمية فهم مشترك لتصميم المشروع ونظريته للتغيير.

على مستوى آخر، سمحت ورش العمل بإعادة النظر في الافتراضات المضمنة في نظرية التغيير للمشروع، من خلال صياغة الأسئلة التي يجب الإجابة عليها لتقييم الوضع الحالي للمجتمعات المستهدفة، المعروفة باسم دراسة خط الأساس. بعد أن تعرفوا للمفاهيم الأساسية للمتابعة والتقييم، صاغت مجموعة البحث والتعلم المشترك أسئلة خط الأساس وصممت أدوات جمع البيانات للإجابة على تلك الأسئلة. على عكس إجراءاتها من قبل مستشار خارجي، تم تصميم دراسة البيانات الأساسية للمشروع من قبل فريق المشروع. أكد فريق المشروع أن عملية جمع خط الأساس كانت مفتاحًا لفتح أعينهم وأتاح لهم تطوير فهم مستند إلى الأدلة للمجتمعات المستهدفة.

الخطوة الخامسة: إعادة تصميم المشروع في ضوء التعلم الجديدة والتحديات الناشئة.

ساعدت نتائج دراسة خط الأساس في التعرف أكثر على المجتمعات المستهدفة، والثقافة المحلية والمساحات المتاحة في تلك المجتمعات. بالإضافة إلى ذلك، قدمت معلومات حول الموارد والاحتياجات الحالية للمنظمات الشريكة. وبناءً على ذلك، قام فريق المشروع بمراجعة تصميم المشروع في ضوء نتائج دراسة خط الأساس، وتعديل استراتيجية تنفيذ المشروع والأنشطة لتلبية احتياجات المجتمعات المستهدفة والمنظمات الشريكة.

في الوقت نفسه، بدأ وباء كوفيد - ١٩ في الانتشار في ذلك الوقت، مما تسبب في تحديات إضافية لتنفيذ أنشطة المشروع في ظل القيود المفروضة على التجمعات. تم تعليق تنفيذ الأنشطة لبضعة أشهر، مما منح الوقت والمساحة لفريق المشروع لإعادة التفكير في تصميم المشروع وقدرتهم على تنفيذ أنشطة المشروع. كان المشروع مصممًا في الأصل ليقوم منسقو المشروع بتنفيذ مجموعة من أنشطة تدريب مهارات الحياة والتعبير الإبداعي والمسرح في المجتمعات المستهدفة، حيث وجد المنسقون أنفسهم في موقف يجبرهم على تنفيذ أنواع مختلفة من الأنشطة ليست في نطاق مهاراتهم أو خبراتهم السابقة، مما أدى إلى عدم توظيف إمكاناتهم وخبراتهم بشكل فعال في المشروع.

وظف فريق المشروع ورش العمل في إعادة تصميم الإطار المنطقي للمشروع، من خلال تجميع أنشطته في هيكل برمجي. قام هذا الهيكل البرمجي بتحويل أدوار منسقي المشروع لتكون أكثر تركيزًا على تنفيذ البرامج وفقًا لخبراتهم ومهاراتهم الفنية. على سبيل المثال، أصبح عضو الفريق الذي كان لديه خبرة سابقة في إجراء أنشطة المسرح مسؤولًا عن تنفيذ أنشطة المسرح في كل المجتمعات المستهدفة.

الخطوة السادسة: تطوير أدوات المتابعة والتقييم لأنشطة المشروع.

وفقًا للمؤشرات المحددة للمشروع، عملت مجموعة البحث والتعلم المشترك على تطوير أدوات متابعة وتقييم يمكن أن توفر بيانات مفيدة لتقييم جودة تنفيذ الأنشطة، والتقدم الذي يتم إحرازه في تحقيق مؤشرات المشروع. في هذه المرحلة، بدأ دوري يتجاوز دور تيسير العملية إلى تقديم نصيحة تقنية للفريق حول تصميم أدوات المتابعة والتقييم. كنت على علم بوضعي في موقع القوة أثناء القيام بذلك، وقمت بتوظيف ورش العمل كمساحة للفريق لمناقشة وتحدي ما أقترحه. بالإضافة إلى ذلك، ساعدهم اختبار الأدوات التي تم تصميمها باكتساب قوة المعرفة التجريبية التي مكنتهم من إجراء تحسينات إضافية لأدوات المتابعة والتقييم. قام الفريق بإجراء العديد من التحسينات لزيادة فعاليتها وملاءمتها للمشاركين المستهدفين.

الخطوة السابعة: التأمل أثناء العمل والبحث في أسئلة جديدة.

في هذه المرحلة، وفرت ورش العمل وقفات تعلم تأملية، حيث تتيح لفريق المشروع عملية منظمة للتفكير بانتظام في تقدم المشروع والأسئلة التي تنشأ حول جودة تنفيذ الأنشطة. كانت هذه الورش أيضًا مكانًا للتفكير في البيانات الخاصة بالمتابعة والتقييم ومناقشة تأثيرها على تنفيذ المشروع.

بالإضافة إلى ذلك، وظفت مجموعة البحث والتعلم المشترك هذه الورش للتفكير الذاتي في تجاربهم الشخصية مع المشروع وكيف ساهم ذلك في منحى تعلمهم. و نتيجة لذلك، أصبح فريق المشروع أكثر وعيًا بكيفية مساهمة المشروع في تطوير أنفسهم وتطوير مسار حياتهم المهني. يجدر بالذكر أن إحدى أعضاء فريق المشروع قررت ملاحقة دراستها العليا في متابعة وتقييم مشروعات التنمية، وكرست مشروعها البحثي لفحص الأساليب التشاركية في إدارة الجمعيات الغير حكومية، كإلهام من عملية التخطيط والتقييم التشاركي التي تجري داخل المشروع.

الخطوة الثامنة: تقييم نتائج المشروع والتفكير في عملية بحث الفعل التشاركي بأكملها.

في الستة أشهر الأخيرة من فترة المشروع، تم تخصيص ورش العمل لتقييم نتائج وتأثير المشروع. من خلال تلك الورش، صاغت مجموعة البحث والتعلم المشترك أسئلة التقييم وأدوات جمع البيانات التي يمكن أن تجيب على تلك الأسئلة. على غرار دراسة خط الأساس، بدأ دوري يتجاوز دوري تيسير العملية إلى تقديم نصائح لفريق المشروع حول كيفية تقييم نتائج المشروع. قدمت مداخلاتي كتغذية راجعة للأسئلة والأدوات التي صاغها فريق المشروع. ومع ذلك، يجب أن أعترف بأنني قمت بتحرير النهائي للأدوات لضمان وضوحها واتساقها.

بعد جمع البيانات، تحولت ورش العمل لتركز على تحليل البيانات بشكل تشاركي، حيث قامت مجموعة البحث والتعلم المشترك على تحليل البيانات في شكل مواضيع ومحاور من أجل تقييم نتائج المشروع على الأطفال المستهدفين، والشباب المتطوعين، والمنظمات الشريكة، بالإضافة إلى المجتمعات المستهدفة. تراكم لدى فريق المشروع قدراً كبيراً من المعرفة حول المشاركين والمجتمعات المستهدفة. كانت هذه المعرفة مفيدة لوضع نتائج تحليل البيانات في سياق أوسع وتحقيق فهم أعمق للأثار المتنوعة التي نتجت عن المشروع. وعلى الجانب الآخر، كانت مجموعة البحث والتعلم المشترك حريصة للغاية على أنفسهم وتفسيراتهم للبيانات التي تم جمعها بالشكل الذي يتحقق من تأثير آراءهم ومواقفهم الشخصية على تحليلهم للبيانات.

كانت الخطوة الأخيرة هي العمل مجموعة البحث والتعلم المشترك على التأمل عملية بحث الفعل التشاركي بأكملها. استخدموا الكتابة التأملية الفردية وأدوات التفكير التأملية الجماعية مثل الخط الزمني وسرد القصص حول الأحداث الحرجة ونقاط التحول التي واجهها المشروع. قاموا بصياغة عدة مسودات لكتاب تأملي يحكي رحلتهم مع استخدام بحث الفعل التشاركي داخل المشروع. قاموا بكتابة الكتاب بأكمله، وكان دوري فقط تيسير عملية التفكير الجماعي، وتقديم التعليقات، والقيام بتحرير نهائي للكتاب. شكل تطوير هذا الكتاب التأملية تحولاً كبيراً في قدرة المجموعة على التفكير بشكل تأملي، بعد أن كانوا نادراً ما يستخدمون الكتابة في تأمل ممارستهم. لا يمكنني أن أفترض أن الجميع قد قاموا بتطوير القدرة على التعلم والكتابة التأملية بنفس المستوى، ولكنني متأكد من أن الجميع يعترفون بأثر التأمل في لتطوير ممارساتهم وقدراتهم.

5. الأثار الناتجة من عملية بحث الفعل التشاركي على فريق المشروع وجمعية أنا مصري

يقدم تقرير التقييم النهائي للمشروع نظرة شاملة على أثار العملية التشاركية على فريق المشروع وأنا مصري. يمكن تلخيص هذه الأثار في النقاط التالية:

- **تعزيز قدرات فريق المشروع من خلال العمل:**
توفر أبحاث الفعل التشاركي (PAR) عملية هيكلية للتساؤل، والبحث، والتأمل، والتعلم على طول رحلة المشروع، مما ساهم في بناء قدرات فريق المشروع في تطبيق الطرق التشاركية، والتفاعل مع المجتمعات المحلية، وجمع وتحليل البيانات، وتوثيق قصص التغيير الأكثر دلالة، وتقييم الأنشطة، والكتابة التأملية. بالإضافة إلى ذلك، طوّر فريق المشروع ثقة واضحة في النفس واستعداداً للتعلم بشكل تأملي من تجاربهم.
- **تمكين أصوات فريق العمل وتأكيد ملكيتهم للمشروع:**
شكلت عملية بحث الفعل التشاركي تحدياً للإدارة الهرمية في أنا مصري. مثل معظم المنظمات الأهلية في مصر، تتركز السلطة وصلاحيات اتخاذ القرار في مجلس إدارة الجمعية والمدير التنفيذي للجمعية. خلقت ورش العمل التشاركي مساحات للتواصل والنقاش لم تكن موجودة بين فريق المشروع وإدارة الجمعية حول أنشطة المشروع والعمل في المجتمعات المستهدفة. توسعت هذه المساحات التواصلية لتشمل القرارات التي تتخذها إدارة الجمعية وعواقب تلك القرارات على المشروع. يوضح الاقتباس أدناه كيف ساهم هذه المساحات التواصلية الذي أتاحها عملية بحث الفعل التشاركي في تمكين أصوات الفريق ومحاسبة إدارة أنا مصري.

"أثبتت عملية بحث الفعل التشاركي أن كل واحد منا هو شريك رئيسي في نجاح المشروع، ومكّنتنا من العمل كفريق والتعبير عن أصواتنا... لاحظت أن العملية جعلتنا أكثر استعداداً لتحقيق النتائج وتقديمها. بالإضافة إلى ذلك، حثتنا على تطوير قدراتنا واكتساب مهارات جديدة... جعلتنا قادرين على التعبير عن أصواتنا والمشاركة في اتخاذ القرارات ضمن المشروع. لم نكن مسؤولين فقط عن تنفيذ المشروع، بل ساهمنا بنشاط في تصميم وتقييم تلك الأنشطة. بدون عملية بحث الفعل التشاركي، لما كان لدينا هذه المساحة من التغذية الراجعة والنقاش، وكانت البيئة غير التشاركية قد استمرت حتى نهاية المشروع... بالإضافة إلى ذلك، أظهرت لنا عملية بحث الفعل التشاركي كيف نكون مشاركين ونشارك بفعالية مع الأطفال والشباب."

~ تأمل أحد أعضاء فريق المشروع حول استخدام منهجية بحث الفعل التشاركي في المشروع.

التحول إلى إدارة تشاركية داخل المشروع:

مكّنت عملية بحث الفعل التشاركي فريق المشروع من تبني إدارة تشاركية وتطوير روح العمل التعاوني، حيث ساهمت ورش العمل في خلق علاقات أفقية وتعاونية بين أعضاء فريق المشروع بغض النظر عن أدوارهم ومواقعهم. وازداد ذلك وضوحاً عندما انضم مديراً جديداً للمشروع إلى الفريق، حيث كان يؤمن بشكل واضح بأهمية الإدارة المشاركة لتمكين فريق المشروع من المشاركة في اتخاذ القرارات. بالإضافة إلى ذلك، سمحت عملية بحث الفعل التشاركي لفريق المشروع بالتساؤل بشكل نقدي في أدوارهم والعمل على تطوير شكل أكثر كفاءة لتنظيم أدوارهم داخل المشروع. نتيجة لذلك، تحولت أدوار فريق المشروع من مجرد تنسيق تنفيذ الأنشطة المتنوعة إلى إدارة مجموعات من الأنشطة ذات نفس النوع في شكل برامج. لعب هذا التحول دوراً حاسماً في تمكين فريق المشروع من إدارة المشروع بشكل تعاوني. فكل عضو في فريق المشروع كان مسؤولاً عن اتخاذ القرارات بشأن برنامجهم الموكل إليه، بما في ذلك إدارة الأمور المالية، والتنسيق مع الشركاء، والمهام الاستشارية. كان لهذا التحول تأثير كبير على تعزيز ثقة الفريق في أنفسهم وإحساسهم بالتقدير لمهاراتهم وخبراتهم السابقة.

6. الدروس المستفادة من استخدام بحث الفعل التشاركي كمنهجية للتقييم والتعلم التشاركي

إشراك فريق العمل والمشاركين في المشروع:

كما ذكر سابقاً، مكّنت عملية بحث الفعل التشاركي فريق المشروع من المشاركة في عمليات تخطيط وتقييم المشروع. إذ منحتهم ورش العمل مساحة للتعبير عن أسئلتهم والبحث عن إجابات لها، مما ساهم في توسيع حدود أدوارهم لتتجاوز مجرد تنفيذ الأنشطة، وأصبحوا أكثر مشاركة في تخطيط أنشطة المشروع وتقييم مخرجاته ونتائجه. بالإضافة إلى ذلك، جعلت عملية بحث الفعل التشاركي فريق المشروع أكثر حرصاً على البحث عن ملاحظات وآراء المشاركين في المشروع بطريقة منظمة، مما ساهم في ضمان استجابة الأنشطة لاحتياجاتهم وتطلعاتهم. وبمعنى آخر، ساهمت عملية بحث الفعل التشاركي في تمكين أصوات فريق العمل والمشاركين في المشروع، ولكن ظل دور المشاركين في المشروع مقتصرًا على تقديم الملاحظات والمدخلات أثناء عملية التخطيط والتقييم دون أن يكونوا جزءاً من اتخاذ القرار. أعتقد أن ذلك كان ممكناً إذا كانوا المشاركون أو المتطوعين في المشروع جزءاً من مجموعة البحث والتعلم من البداية.

إرادة حقيقية والتزاماً من الإدارة العليا:

عملية بحث الفعل التشاركي هي عملية طويلة تتطلب إرادة حقيقية من جميع الأطراف المعنية، بالإضافة إلى التزام من الإدارة العليا في المؤسسات. كما ذكر سابقاً، خلقت عملية بحث الفعل التشاركي مساحة تواصل ونقاش لم تكن موجودة في جمعية أنا مصر من قبل، مما أثر بشكل إيجابي على ديناميات السلطة داخل الجمعية وجعل إدارة الجمعية مساءلة عن قراراتها وتدخل في مناقشة هذه القرارات مع فريق عمل المشروع. لذلك، تتطلب عملية بحث الفعل التشاركي استعداد ورغبة إدارة الجمعية لإشراك فريق عملها في اتخاذ القرارات والتخطيط.

التعلم المستمر داخل المؤسسات:

تقدم ورش العمل ضمن عملية بحث الفعل التشاركي عملية منظمة لمعالجة أي أسئلة طارئة طوال تنفيذ المشروع. كما ذكر سابقاً، سمحت ورش العمل لفريق مشروع "فن للجميع" بطرح أسئلتهم طوال دورة حياة المشروع، بدءاً من مرحلة التصميم حتى التقييم. ساهمت هذه الممارسة في طرح الأسئلة والبحث عن إجاباتها في ممارسة مستمرة للتعلم والتأمل داخل جمعية أنا مصري، مما انعكس إيجاباً على قدرة الجمعية على تنفيذ المشروع وتحقيق النتائج المقصودة.

المرفق 1: خط زمني لتطبيق منهجية البحث الفعّال داخل مشروع "الفن للجميع" (2019 – 2022)

الاجتماع الاستهلاكي - يناير 2019:

- تقديم بحث الفعل التشاركي (PAR) إلى فريق الإدارة العليا لجمعية أنا مصري (المنظمة المنفذة) ومدير المشروع لضمان موافقتهم واستعدادهم المؤسسي لتطبيق بحث الفعل التشاركي كمنهجية للتخطيط والمتابعة والتقييم والتعلم طوال مدة المشروع.

الورشة الأولى - أبريل 2019:

- تقديم بحث الفعل التشاركي (PAR) إلى فريق المشروع كمنهجية للتخطيط والمتابعة والتقييم والتعلم طوال مدة المشروع.
- تشكيل مجموعة البحث والتعلم المشترك تجمع بين فريق المشروع وإدارة أنا مصري والمتطوعين والمنظمات الشريكة لتطبيق بحث الفعل التشاركي ضمن المشروع.
- وضع ميثاق للمجموعة يوضح دورها وقواعدها.

الورشة الثانية - مايو 2019:

- مراجعة مفاهيم بحث الفعل التشاركي وتأكيد فهم مشترك لكيفية تطبيقه ضمن المشروع.
- تقديم المشاركين للتأمل والكتابة التأملية كوسيلة لتعميق تعلمهم.
- مناقشة نظرية التغيير للمشروع والأسئلة التي يجب الإجابة عليها حتى يتمكنوا تصميم أنشطة المشروع.
- التخطيط لجمع البيانات للإجابة على تلك الأسئلة (دراسة خط الأساس للمشاركين المستهدفين والمجتمعات)

الورشة الثالثة - أغسطس 2019:

- تحليل البيانات التي تم جمعها من دراسة خط الأساس.
- التفكير في تجارب فريق المشروع في التفاعل مع المشاركين والمجتمعات المستهدفة.

الورشة الرابعة - ديسمبر 2019:

- مناقشة نتائج دراسة خط الأساس وانعكاساتها على المشروع.
- إعادة النظر في نظرية التغيير للمشروع في ضوء نتائج دراسة خط الأساس.
- تقديم تدريب على الكتابة الانعكاسية.

الورشة الخامسة - يناير 2020:

- إعادة النظر في أنشطة المشروع ومؤثراتها المقابلة.
- إجراء تقييم سريع لإحدى أنشطة أنا مصري (ملاحظة: تم تنفيذ هذه النشاط كجزء من المشروع في البداية، ثم تم تصحيحه باعتباره غير ذو صلة بالمشروع).

الورشة السادسة (عبر الإنترنت) - مايو/يونيو 2020:

- إعادة تصميم إطار العمل للمشروع مع أنا مصري وفريق المشروع.
- تطوير فهم مشترك للمشروع (الانتقال من أنشطة متناثرة إلى برامج مركزة أكثر).

الورشة السابعة (عبر الإنترنت) - سبتمبر/أكتوبر 2020:

- مناقشة الإطار النهائي والاتفاق على المؤشرات المقابلة.

الورشة الثامنة - ديسمبر 2020:

- تطوير نظام وأدوات المتابعة والتقييم للمشروع.

الورشة التاسعة (عبر الإنترنت) - مايو 2021:

- التأمل في تقدم المشروع (يناير-أبريل 2021)
- إعادة النظر في نظام وأدوات المتابعة والتقييم.

الورشة العاشرة - أكتوبر 2021:

- التفكير في تقدم المشروع (مايو-سبتمبر 2021)
- إعادة النظر في نظام وأدوات المتابعة والتقييم.
- كيفية كتابة قصص التغيير الأكثر دلالة .

الورشة الحادية عشرة - يونيو 2022:

- التفكير في التجارب الشخصية مع المشروع وتأثيراتها.
- تحليل البيانات المجمعة عبر أدوات التقييم والمتابعة.
- التخطيط لتقييم نتائج المشروع (تحديد الأسئلة).

ورشة العمل الثانية عشرة - أغسطس 2022:

- تطوير الإطار لتقييم نتائج المشروع.
- تصميم أدوات جمع البيانات.

ورشة العمل الثالثة عشرة - أكتوبر 2022:

- تحليل البيانات المجمعة لتقييم نتائج المشروع.
- تقييم جودة الكتابات المنتجة للكتاب التأملي.

ورشة العمل الرابعة عشرة - ديسمبر 2022:

- كتابة مسودة التقييم الأولى للمشروع.
- كتابة مسودة الكتاب التأملي الأولى.

المراجع

Swantz, M. (2015) Participatory Action Research: Its Origins and Future in Women's Ways, in Bradbury, H. (Ed.). (2015). The Sage Handbook of Action Research. Nurse researcher (Third Edit, Vol. 16).

Estrella, M., & Gaventa, J. (1998). Who Counts Reality? Participatory Monitoring and Evaluation: A Literature Review, 5, 73.